الشيخ الرئيس
ابن سينا
أسطورة العلم

محمد فتحي صبري

دار الفكر العربي

الشيخ الرئيس

ابن سينا

أسطورة العلم

تأليف
محمد فتحي صبري

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
الإدارة : ١١ شارع جواد حسني
ص . ب ١٣٠ القاهرة – ت : ٣٩٢٥٥٢٣

٠٩٢ , ١٨٩س
م ح ش ى

محمد فتحى صبرى.
الشـيخ الرئيس ابن سـينا : أسطورة العلم/ تأليف محمد فتحى صبرى. - القـاهرة : دار الفكر العربى ، إيداع ١٩٩١.
٤٧ ص : مص ؛ ٢٤ سم .
يشتمل على ثبت بالصور.
I.S.B.N:977-10-9876-4
١ - ابن سـينا، شـرف الدين ابو على الحسين بن عبد الله، ٣٧٠-٤٢٨هـ . ٢- الفلسفة الإسلامية.
أ- العنوان.

منذ أكثر من ألف عام، وفى قرية بالقرب من مدينة بخارى التى تقع فى مفترق الطرق بين روسيا وإيران والهند والصين كان يقطن عبد الله بن على بن سينا، وقد رزقه الله بابن جميل الصورة سماه الحسين، وعلى عادة الناس فى ذاك الزمان أطلق عليه اسما آخر وهو أبو على فصار اسم الولد أبو على الحسين.

وما كاد الولد يشب قليلا حتى عين الأمير نوح بن منصور أمير الدولة السامانية والده واليا على مدينة بخارى، فانتقل إليها بأسرته التى تتكون من زوجته وولديه «الحارث» وهو الابن الأكبر والحسين وهو الأصغر، واستقر هناك فى قصر من قصور الأمير «نوح»، ففرح الولدان وأمهما كثيرا بذلك، فقد كانت مدينة بخارى مدينة عامرة بالقصور والمساجد، وكانت تنتشر فيها وتحيط بها الحدائق والبساتين.

ولكن ما أن استقر الوالد عبد الله هناك، حتى أخذ يستقبل فى قصره كل ليلة بعد صلاة العشاء صفوة من علماء الفقه واللغة والعلوم المختلفة كالطبيعة والرياضيات والفلك والمنطق والفلسفة، فكان يدور بينهم حوار ونقاش لا يتوقف إلا عند منتصف الليل فى شتى الموضوعات السياسية والدينية، وفى اللغة والعلوم الأخرى.

وبالرغم من أنه كانت تطرح بالمجلس الكثير من الموضوعات التى قد لاتثير إلا أهل العلم أنفسهم إلا أن الوالد قد لاحظ أنه ما أن يبدأ المجلس حتى يأخذ ابنه الحسين فى الجلوس فى طرف منه، ويستمع بشغف وفضول شديدين إلى ما يتحدث فيه العلماء، والأغرب من ذلك أنه كان لا ينصرف عن المجلس لينام، إلا حين يذهب آخر ضيف، ومما زاد الأب دهشة أن ابنه كان يحاصر العلماء بالأسئلة، ويطلب منهم أن يشرحوا له المصطلحات الغامضة.

فراح الأب فى حيرة وقلق شديدين من أمر ابنه هذا، ولكنه ما كاد يفاتح زوجته يوما ويصرح لها بما ينتابه من قلق إذا به يفاجأ بها تقول شاكية:

– إنني يا عبد الله أريد أن أحدثك عن أمر يقلقنى ويذهب عني النوم منذ أمد طويل.

فتساءل عبد الله في دهشة:

– وما هو هذا الأمر ياستارة؟

ولكن، ما أن شرعت زوجته في الحديث، حتى أجهشت بالبكاء، فازدادت لهفة زوجها وسألها في صبر نافد:

– ماذا.. ما هذا الأمر ياستاره؟!

فأجابت ستارة وهي تغالب دموعها:

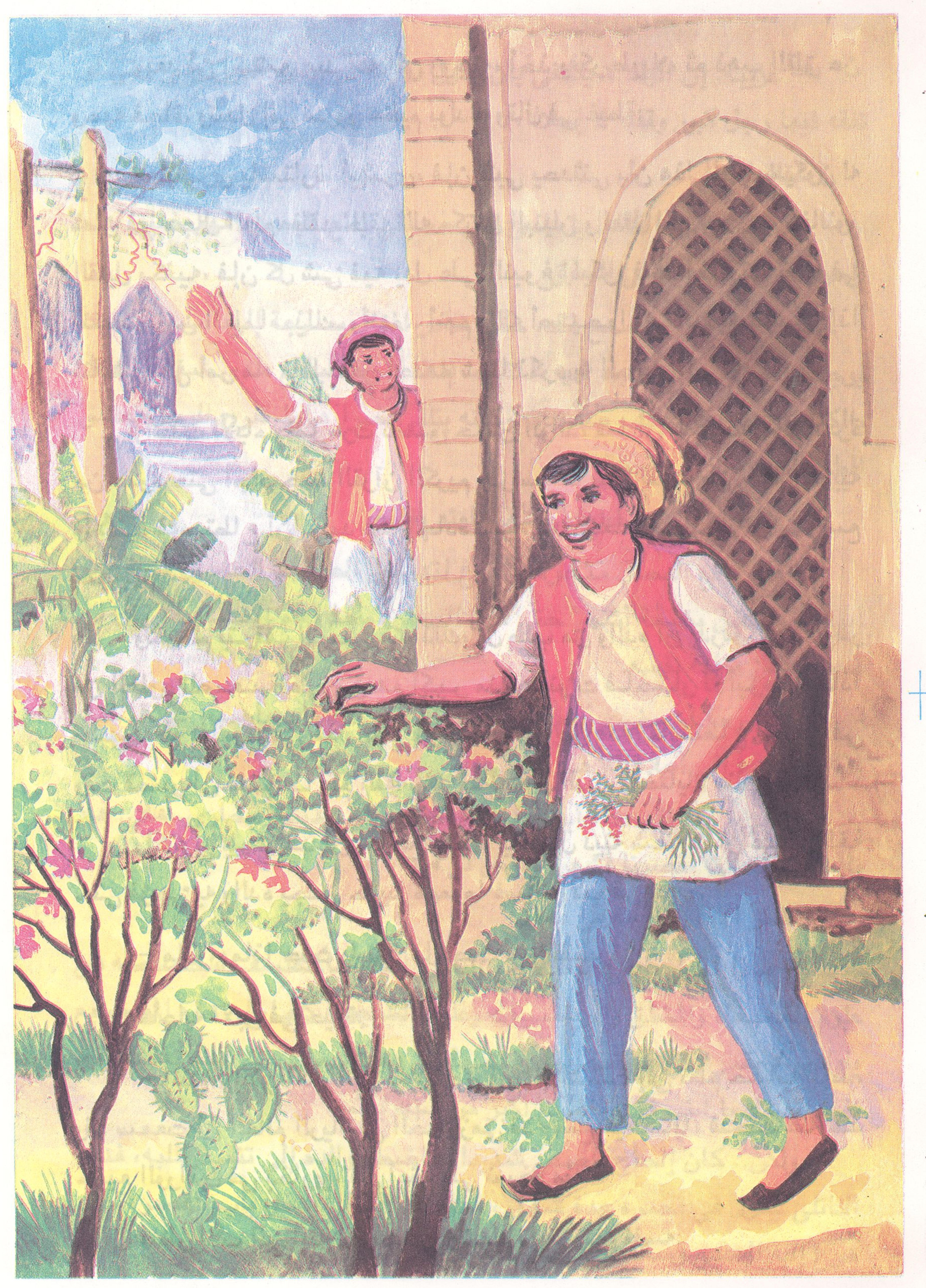
– الحسين.. ابني. تصور. تصور ياعبد الله أنه يختلف عن كل الأولاد وفي كل شيء، فهو لايحب اللعب مثلهم ولايجد مسرة ولا متعة إلا في القراءة والحفظ، لقد طلبت منه مرارا أن يذهب مع أخيه الحارث للتجول ولو يوما واحدا في أنحاء بخارى، ولكنه ما أن يذهب معه حتى يترك أخاه، ويروح يتأمل ويفحص النباتات والأوراق والزهور، بل ويقضي الساعات في تأمل الحيوانات في فضول شديد، وإذا لم يجد ذلك يجلس تحت شجرة مستغرقا في قراءة كتاب، والأغرب من ذلك، والذي يطير النوم من عيني هو الأسئلة الغريبة التي يسألني عنها دائما.

وصمتت الأم قليلا، فقال عبد الله يستحثها في قلق:

– وما هي الأسئلة الغريبة، قولي ياستاره؟

فواصلت ستارة حديثها قائلة:

– سألني يوما كيف كان شكل الدنيا قبل أن يخلق الله الكون كله؟ ومرة أخرى سألني: وبعد أن يدخل الناس الجنة أو النار يا أمي ويعيشون فيهما طويلا إلى الأبد، فهل هناك أبد بعده؟ لقد احترت وكدت أصدق بأن هناك عملا معمولا لابني هذا، فهو لا ينام ياعبد الله أكثر من ثلاث ساعات فقط.



كان ابن سينا وهو غلام يقضى الوقت الطويل يتأمل ويفحص النباتات والأوراق والزهور

وبعد أن استمع عبد الله إلى زوجته، أخذ يفكر طويلا، ثم ذهب القلق عن وجهه فجأة، وتبدل إلى سرور عظيم بولده، وقال فى غبطة:

- أبشرى ياستارة. أبشرى، فإن قلبى يحدثنى بأن هذا الولد سيكون له شأن فى مجال العلم، فلقد خلقه الله مكتمل البنيان والعقل إلى حد كبير، فالنوم القليل يكفيه، فإن كل شئ فيه يدل على النبوغ المبكر، فلقد أخبرنى شيوخى أنفسهم من العلماء بذلك. وأنهم.. أنهم والله أصبحوا يعملون له حسابا إذا تناقشوا فى أمر ما، فإذا نسى أحدهم شيئا ذكره به الصبى.

وأخذت الأيام كلما مرت تصدق حدس الوالد، فما أن بلغ الطفل العاشرة من عمره حتى أجاد حفظ القرآن الكريم ودراسة ما يلزم لفهمه من اللغة العربية والأدب، فاستطاع أن يجيد ذلك إجادة تامة، مما جعله حديث الناس وموضع إعجابهم.

ولكن لم يتوقف الصبى عند ذلك، بل طلب من والده أن يدرس الفقه وهو من العلوم الصعبة على من هم أكبر منه بسنوات فاختار له أبوه أستاذا مشهودا له بالمعرفة فى هذا العلم هو إسماعيل الزاهد، فاستطاع الصبى فى وقت قصير أن يستوعب علم الفقه، فعرف أصول الدين وقضاياه منذ الصغر.

ولكنه لم يلبث بعد أن أصبح فقيها بأحوال دينه شأنه شأن علماء اللغة حتى فوجئ به والده يجلس حزينا مهموما فسأله الأب فى حيرة:

- ماذا .. ماذا حدث يابنى، هل حدث شئ خطير؟

فأجابه الابن فى حيرة:

- إننى.. إننى أكاد أجن يا والدى، فلطالما اشتقت إلى تعلم حساب الهند، وقد سمعت أن العالم الرياضى الخوارزمى قد وضع فيه كتابا، فبحثت عنه عند جميع الوراقين فى بخارى، فلم أعثر على نسخة منه.

فنظر الأب إلى ابنه فى دهشة، وتساءل بينه وبين نفسه:

– غريبة. إن الولد لا يكتفي بأن يكون فقيها في علوم الدين وهي التي لو تفقه فيها رجل كبير وقفنا له إجلالا.

فقال لابنه:

– ستجد هذا الكتاب يا ولدى لدى صديقي بائع البصل، فهو خبير بعلم الحساب، فاذهب إليه في السوق.

فما كاد الابن يسمع ذلك، حتى غادر المنزل بسرعة إلى السوق، حيث يوجد بائع البصل، فوجد لديه الكتاب، فلما لاحظ البائع مدى شغف الطفل بالكتاب حتى كان يقلب صفحاته وكأنه يتلقى خبرا هاما، فرح الرجل بعشق الطفل للعلم وقال في غبطة:

– يابني.. إنني ساعلمك حساب الهند بنفسي.

وأغلق بائع البصل متجره، وتفرغ لتدريس الحساب للحسين في قصر أبيه، فلم تمض بضعة أشهر حتى كان الحسين ملما بعلم الحساب لا يقل في مستواه عن معلمه نفسه.

ولكن.. ما أن مضت أيام على تعلم الصبي الحساب وأصبح حاذقا فيه، إذا به يسرع إلى أبيه قائلا في لهفة:

– أبي.. أبي لقد جاء أبو عبد الله الناتلي إلى مدينتنا بخارى. هلا.. هلا ياأبي استضفته بقصرنا أشهرا يدرس لي فيها.

فنظر الأب إلى ابنه في ذهول:

– ماذا تقول يابني، فعبد الله الناتلي الملقب بالمتفلسف لتخصصه في علوم الفلسفة، والمنطق والرياضيات وعلوم الطبيعة كلها.. إن هذه المواضيع ياولدي لا يقدر على استيعابها وفهمها من هم في مثل سن أبيك نفسه، فلا تقحم نفسك يا ابني في مواضيع أكبر من سنك بكثير.

ولكن.. كان إلحاح الصبي شديدا، فاضطر والده إلى تنفيذ طلبه، فدعا الناتلي لينزل في قصره عدة شهور، فما كاد الناتلي يدخل باب القصر، حتى هرع إليه الصبي وسأله في توسل ولهفة:

– لقد سمعت عنك وعن علمك، فأرجوك أن تعلمنى كل ما تعلمته من منطق ورياضيات وعلوم الطبيعة كلها من فلك وفيزياء.. فأنا بعون الله قادر على الجمع بين دراستها جميعا.

فنظر إليه الناتلى غير مصدق، وقال فى نفسه متعجبا:

– إن هذا الطفل مغرور، لا يعرف أن هذه العلوم أعقد على من هم أكبر منه سنا بكثير، ولكننى مضطر إكراما لوالده أن أقوم بالتدريس ولو لعدة أيام.. حتى يصاب الصبى بإحباط فييأس ويتركنى هو، فلا يلومنى أحد.

وبدأ الرجل فى تدريس العلوم للصبى، وأخذ جميع من فى القصر وزائريه يترقبون حال الصبى، فكان فى الصباح يواصل دراسة علوم الفقه والدين ليصير من علمائه، أما من بعد صلاة الظهر حتى العشاء فيجلس أمام الناتلى فيتلقى علوم المنطق والفلسفة والطبيعيات والرياضيات وفى الليل كان مجالس العلماء كعادته ولو لساعة واحدة.

وعلى عكس ما تصور الناتلى لم ييأس الصبى من دراسة العلوم، بل استمر معه لعامين.. حتى جاء اليوم العجيب الذى لم يتصوره أحد وخاصة عبد الله بن سينا، فما أن فرغ من أعمال الإمارة مبكرا فى ذلك اليوم حتى عاد إلى منزله، ولكنه ما كاد يأوى إلى فراشه ليستريح قليلا حتى دفعته نفسه إلى معرفة حال ابنه مع الناتلى، فقام من فراشه وذهب إلى غرفة الناتلى التى يدرس فيها، ولكنه ما كاد يقترب من الباب حتى توقف فجأة، وأخذ ينصت وظل يفعل ذلك مدة طويلة، ثم قال مخاطبا نفسه فى ذهول:

– ما هذا؟ إننى.. إننى لا أصدق ما يحدث.. لقد انقلبت الآية.. فإننى أسمع ابنى الحسين هو الذى يقوم بالشرح، أما التلميذ فيا إلهى لا يمكن.. لا يمكن.. إنه الناتلى نفسه!!

* * *

ودخل عبد الله الغرفة غير مصدق لما يحدث أمامه، فسأل الناتلى فى دهشة عظيمة:

– ماذا.. ماذا أسمع ياناتلى؟ إننى أسمعه يشرح لك، إننى لا أصدق ما يحدث أمامى.

فأجاب الناتلى فى تأكيد:

– بل صدّق ياعبد الله، فلم يعد ولدك الحسين بحاجة إلىّ، فقد عرف كل ما أعرفه منذ مدة، بل تفوّق علىّ فى مسائل كثيرة فى علم المنطق والهندسة، بل وحتى الفلك والفلسفة، وهاأنتذا تسمعه يفسرها لى.

فتساءل عبد الله كالحالم:

– إننى أكاد أسقط من فرط الذهول، الناتلى نفسه يصير وكأنه تلميذ بجانب ابنى الصغير.

فأجاب الناتلى فى صدق:

– بل صدّق أيها الوالى. صدق فإن ابنك عبقرية لم يعرف لها مثيل من قبل.

وغادر الناتلى قصر عبد الله بعد ما تأكد من تفوق التلميذ الصغير عليه. ولكنه بالرغم من هذا التفوق الذى أظهره الحسين بن سينا إلا أن القضايا الفلسفية أخذت تستغرقه مددًا طويلة، فكان يأخذ فى الاطلاع يومًا بأكمله، وقد لا ينام ليلة بطولها، فإذا نام تسمعه أمه فى نومه وكأنه يتحدث مع أحد فى مسائل الفلسفة، فازداد قلقها وخشيتها عليه، فاشتكت إلى زوجها لتبث له مخاوفها على ابنها الذى تشعر بأنه سيضيع أمام عينيها. ففكر عبد الله كثيرا، فوجد أنها محقة فى تخوفها، فإنه وإن كان نابغة حقا إلا أنه لم يتعد الرابعة عشرة من عمره، وله حقوق على نفسه وعلى جسده، فمن حقه أن ينال قسطا من النوم، وأن يروّح عن نفسه بالخروج ليتنزه ولو يوما فى الأسبوع.

فما أن سأل عنه وعلم أنه بالمسجد حتى وجدها فرصة سانحة، ففى لحظات الصفاء الروحى هذه قد يستجيب إلى كلامه، فيأخذ من الدنيا بعض راحته.

فدخل الأب المسجد ووجد ابنه قائما يصلى فوجدها فرصة ليصلى لله عدة ركعات حتى ينتهى ابنه من صلاته، لكنه كلما فرغ هو ونظر حوله يجد ابنه ما يزال مستمرا فى صلاته.. وما يكاد يتم صلاة حتى يجلس يدعو ربه ويناجيه.. واستمر الابن فى ذلك طويلا، ولدهشة الأب وجده يقبل عليه ويعانقه ويقبله فى فرحة غامرة.

فتساءل الأب فى دهشة:

– مالك يابنى.. ماذا حدث؟

فأجابه الابن فى سعادة:

– كنت أبتهل إلى الله الخالق المبدع، حتى فتح على أبواب مسألة لم أعرف حلها!!

لقد كان كلما لم يجد حلا لمسألة يبتهل إلى الله ويطيل فى سجوده حتى يفتح الله عليه بحلها، أو يصل إلى حلها أثناء نومه فيسرع إلى المسجد فيصلى ويسجد شاكرا لله، ثم يتصدق بما معه للفقراء.. حتى جاء يوم قرأ فيه كتاب «ما بعد الطبيعة» للفيلسوف اليونانى أرسطو، لكنه بالرغم من أنه قرأه كثيرا حتى حفظه عن ظهر قلب إلا أنه لم يستطع فهمه، فلجأ إلى الصلاة وأطال، ولكن الله لم يفتح عليه بشئ، فكاد يجن ويتساءل فى جزع:

– ربما.. ربما كان الله غاضبا منى أو أننى لم أوف بعهدى بالتصدق على أحد الفقراء أو ربما كان والداى غاضبين علىّ.

فأخذ يسترضى والديه بشتى السبل، ويتصدق بكل ما يملك على الفقراء والمحتاجين.. ولكن لم يفتح الله عليه بشئ.

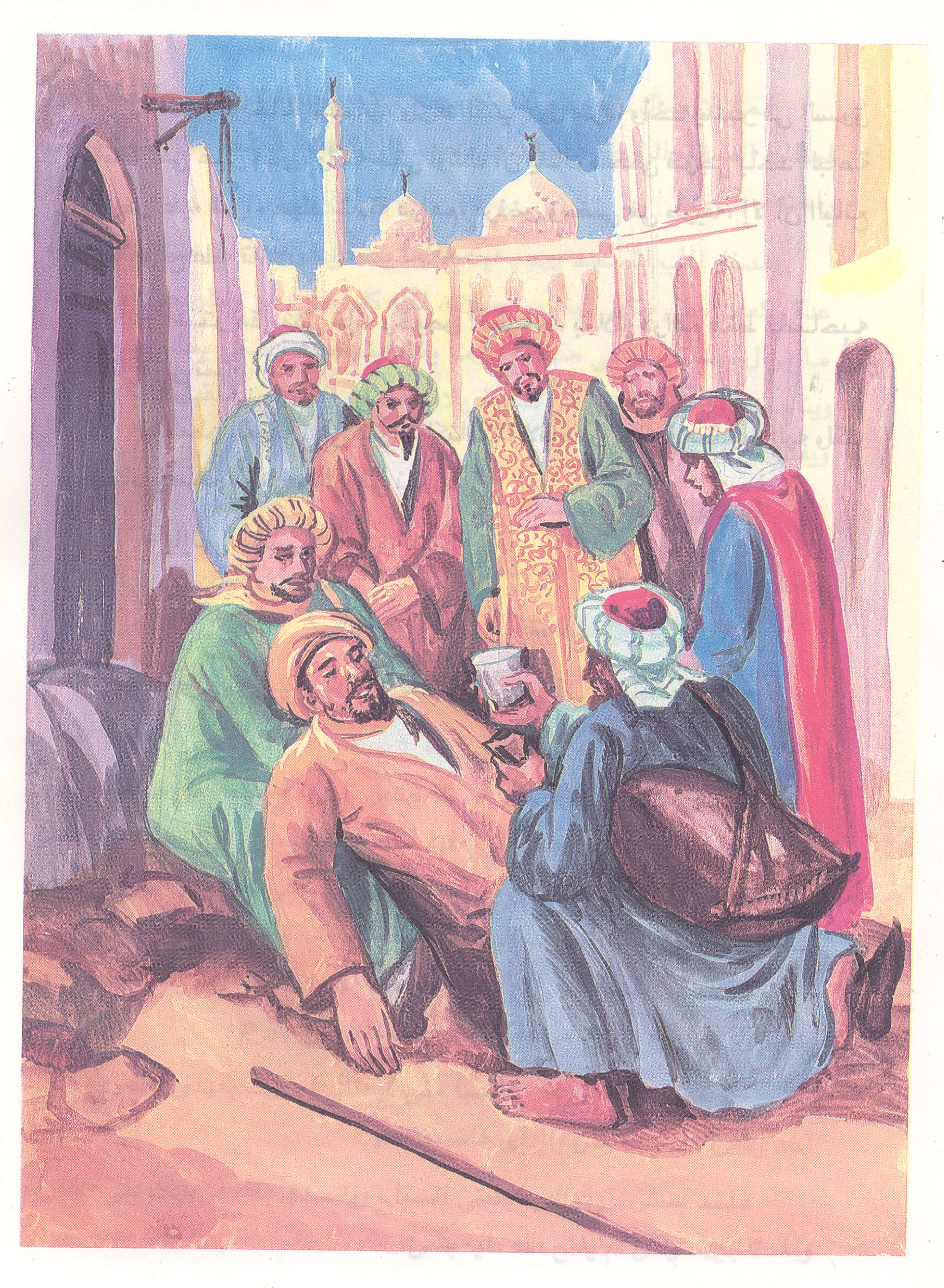
فأصابته حالة اكتئاب، وترك الكتب لأول مرة، وأخذ يسير فى السوق هائمًا على غير هدى، ولكنه متى أوشك أن يغادره حتى فوجئ بأحد الباعة يعرض عليه شراء مجلد بثلاثة دراهم، فرفض ومضى فى طريقه، إلا أن البائع لحقه، وألح عليه قائلا:

– اشتر هذا منى فإنه رخيص أعطيه لك بثلاثة دراهم فقط فصاحبه محتاج إلى ثمنه.

فاضطر الحسين إلى شراء الكتاب لما لاقاه من حاجة صاحبه إليه ولكنه ما كاد يتصفحه حتى صاح فى ذهول:

– ياإلهى.. إننى لا أصدّق أبدا!!

* * *



ذهب ابن سينا إلى المستوصف وهناك تابع الأطباء وهم يعالجون المرضى.

كانت مفاجأة مذهلة لأبى على الحسين، فقد كان الكتابُ للفيلسوف العربى أبى نصر الفارابى يشرح فيه كل ما غمض على الحسين من أمر كتاب أرسطو، وكأنما قام المؤلف بتأليفه خصيصا له.

ففرح الحسين كثيرا، وأسرع إلى المسجد ليسجد لله ويتصدق على الفقراء بما معه.

ولم تمض على ذلك بضعة أيام، وبينما كان الحسين فى طريقه للمسجد، لفت نظره حشد من الناس، كانوا ملتفين حول أحد الرجال كان مرتميا على الأرض، وكان البعض منهم يسرع إليه حاملا «قربة مياه» ويسكبها على وجهه لعله يفيق، وما كاد الحسين يقترب من الزحام إذا به يشاهد الرجل يبدأ فى الإفاقة، ولكنه متى عاد إلى صوابه حتى أخذ يصرخ صراخا متواليا.

فصاح أحد الرجال بصبر نافد:

– يا جماعه لننقله إلى المستوصف فهو قريب من هنا.

فاستحسن الجميع الفكرة، وحمله بعض من الشباب وساروا به إلى المستوصف، فألفى الحسين نفسه يذهب متعقبا الرجال ويدخل معهم المستوصف.. فلقد شعر أن قوة بداخله دفعته دفعا لدخول المستوصف، ولكنه ما أن صعد درجات السلالم ودلف من البهو الفسيح حتى شعر بقلبه يخفق فجأة خفقانا شديدا، فقد كان يعشق الطب عشقا لا مثيل له لا يقل عن عشقه للفلسفة وسائر العلوم.. فنسى تماما لماذا جاء إلى المستوصف، بل أخذ يتفقد غرف المرضى فى تطلع وشغف غريبين، فلطالما تابع الأطباء وهم يجرون العمليات الجراحية، وكلما تابعهم يتساءل فى حيرة:

– ألا توجد طريقة أخرى تجعل المريض لا يشعر بهذه الآلام المبرحة أثناء الجراحة، فلابد أن توجد وسيلة تجعل المريض يغيب عن وعيه لبعض الوقت ريثما يقوم الطبيب بإجراء الجراحة فلا يتعذب مثلما نشاهده يتعذب.. فالله رحيم بالبشر، ولابد أنه سيهدينا برحمته إلى وسيلة يخلصنا بها من هذا العذاب.

وكان فى أحايين أخرى يتساءل:

– لو استطعنا أن نصور ما بداخل جسد الإنسان، أو حتى نشاهد كيف يقوم جهازه الهضمى بهضم الطعام أو كيف يقوم جهازه التنفسى بعملية التنفس لعلمنا كيف نقضى على الخلل تماما .. فما دمنا نعرف ما يجب أن يكون عليه الجهاز السليم لاستطعنا ببساطة أن نقوم الخلل.

واستمر يتفقد المستوصف لأيام عديدة، كان يسأل خلالها المرضى والأطباء كل يوم أسئلة غريبة.. حتى كادوا جميعا يضجون من أسئلته.. ولكنه توقف فجأة عن زيارة المستوصف، فقد قرر أن يدرس الطب ليشبع نهمه وتعطشه إلى الأسئلة العديدة التى تدور فى رأسه فأسرع إلى والده وقال له فى أدب:

– ياوالدى. أريد أن أبدأ دراسة من جديد.

فنظر إليه والده مستفهما وسأله:

– تدرس من جديد، لقد درست العلوم كلها يابنى؟

فأجاب الحسين فى إصرار:

– لا ياأبى ليست كلها فإننى أعشق دراسة الطب.

فتساءل والده فى حيرة:

– الطب.. ولكن يابنى هذا علم مختلف، فهو علم عملى يختلف عن هذه العلوم النظرية، فلو أقبلت على دراسته فسيتطلب منك ذلك سنوات طويلة، ستنسى فيها العلوم الأخرى التى درستها، وكأنك لم تفعل شيئا.

ولكن الحسين قال فى إصرار:

– لا ياأبى إن كل العلوم يخدم بعضها البعض، فدراسة المنطق مثلا تجعل صاحبها لا يأخذ بالخرافات فى الطب، وهذا هو سبب تأخر الطب، فالأطباء يخمنون دائماً، ولذلك لا يتقدمون، فالطب يا والدى أسلوب من أساليب

البحث وتتبع سير المرض، فلو علم الطبيب أن هناك علاقة بين المرض وظروف البيئة لاستطاع أن يعرف كيف يصل المرض إلى الفرد فيمنع أسبابه، وهي الأسباب التى تؤدى إلي مرض الآخرين، كما أننى يا أبى ألاحظ الأطباء منذ زمن وأجد لديهم عيوباً غريبة، فقد يستطيع الكثير منهم تشخيص المرض، ولكنهم لا يعطون مريضا نفس العلاج.. أتعرف لماذا ياأبى؟ إن هذا راجع إلى وجود علم للأدوية، فلو درس الأطباء جميعا هذا العلم لتوصلوا إلى نفس العلاج.

فنظر الأب إلى ابنه فى غبطة، ودمعت عيناه من فرط سعادته وشعوره الغامر بالفخر بهذا الابن النابغة.

وبدأ أبو على الحسين فى دراسة الطب، فاختار عالمين طبيبين هما الحسين بن نوح القمرى وأبو سهل الحسيب طبيبَى الأمير نوح ليتعلم منهما.. وكان قد أفرغ نفسه تماما ليتعلم الطب فقط، فما كاد العام الأول يمر حتى أخذ يدرس بجانبه علما آخر. الكيمياء. فأخذ يجرى فى قصر والده التجارب على ما عرفه من الكيمياء فى العقاقير النباتية والحيوانية والمعدنية، فانفتحت له بعلاجاته وتجاربه الكيميائية آفاق جديدة فى الطب والكيمياء، كانت جديدة على كل الأطباء والكيميائيين فى زمانه، فلما علم بذلك أستاذاه أبو سهل الحسيب والحسين القمرى، قال الحسيب فى تحدٍ:

– الآن فقط علمت بسرك ياأبا على الحسين يابن سينا، السر الذى وراء نبوغك غير العادى والذى أدهش أهل بخارى جميعاً، إنك يا ولدى لست عبقريا كما يعلم الجميع، ولكنك منذ صغرك تستعين بآخرين لا يعرفهم أحد.

فسألة البرقوقى فى دهشة:

– ومن هم !!

فزفر أبو سهل زفرة عميقة وقال فى تحدٍ:

– الجان؟

* * *

ما كاد ابن سهيل الحسيب يقول ذلك حتى شعر البرقوقي وكأنما انخلع قلبه من بين ضلوعه، ولكنه أخذ يفكر قليلا، ثم قال في اعتراض:

– لا.. لا ياابن الحسيب، إن الولد نابغة فعلا، فما كنا ندرسه له يفهمه بأسرع مما ينتهي إليه لساننا، ويحفظه وكأنما نردده عليه عشرات المرات.

وصمت ابن الحسيب وأطرق في تفكير ثم قال:

– ولكن.. إن العلاج الذي يأتي به جديد لم نسمع به، بل ولم نسمع به من طبيب من قبل حتى نقول أنه قد علمه منه، فمن أين يأتيه هذا العلم بالدواء والأمراض، فهل يأتي العلم بالوحي؟ وهذا غير جائز، فلا يوجد أمامي تصور سوى اتصاله بالجان.

وكان أبو علي الحسين ينظر إليهما وهما يتناقشان في أمره، ولا يعترض بسرعة لأنه يحترم معلميه حتى وإن تفوق عليهما هذا التفوق الذي شهد به الجميع، ولكنه اضطر إلى تعليل سبب تفوقه في أدب قائلا:

– إنكما لم تعلما السبب؛ لأنه راجع إلى شئ كنت أفكر فيه منذ زمن. فالطبيب يتلقى علمه فقط ممن سبقوه، ولا يفكر في التطوير أبداً، كما لا يفكر في علاقة الطب ببقية العلوم، ولقد وجدت أنه يجب أن تكون هناك دراسة علمية للطب مثلما تقترن الكيمياء بالتجارب العملية، فكل ما وصلت إليه هو من التجارب العملية نفسها.

ولم تمض فترة أخرى وجيزة حتى برع أبو علي الحسين براعة فائقة حتى أضحى أشهر الأطباء في بخارى، بل وفي الدولة السامانيه كلها، وكانت الأمراض في تلك الأيام قد تفشت بين الناس في مدينة بخارى حتى دخلت قصور الأغنياء والأمراء، أما الفقراء فكانت أشد فتكا بهم.

وكان الأطباء في بخارى في هذا الوقت قليلي العدد، لذا أخذوا يبالغون في أجورهم لشدة احتياج الناس إليهم، ولكن وبالرغم من أن أبا علي قد صار أشهرهم، إلا أنه كان يقوم بعلاج الناس بالمجان، فكان يزورهم في منازلهم،

فيطببهم ويعطيهم الدواء بالمجان.. فكان دواؤه كالسحر، فانتشر خبره كأعظم طبيب معالج بالرغم من أنه لم يتعد السادسة عشرة من عمره.

ومرض الأمير نوح بن منصور، وأخذ يشكو من قرحة معدته ومن التهاب القولون، فيئس الأطباء من قدرتهم على شفائه فقالوا له مضطرين:

- لا مفر أمامنا من استشارة الطبيب الشهير أبى على الحسين بن عبد الله بن سينا، فعلاجاته مستحدثة لاعهد لأحد بها.

فتساءل الأمير فى حيرة وهو يغالب آلام المرض:

- هل هو قريب عبد الله بن سينا أحد ولاتى؟

فأجاب الحسيب:

- بل هو ابن عبد الله بن سينا نفسه.

فأدرك الأمير ذهول شديد، ولم يصدق أبداً أن أبا على بن عبد الله ذلك الطفل الصغير الذى شاهده منذ أعوام قليلة فقط قد صار طبيبا، بل أشهر أطباء عصره.

ولكنه متى وجد أمامه أبا على أدركه شعور عميق بالثقة فى هذا الطبيب. فلم يكن أبو على الحسين يبدو بالصغير السن، فقد كان بالرغم من صغر سنه مديد القامه قوى البنيان وكأنه أحد الفرسان الكبار، وكان يبتسم ابتسامة توحي للمريض بالثقة فوجد الأمير نفسه يستسلم لتعليمات الطبيب الصغير بعد ما فحصه وأدرك علته وحدد دواءه، وطلب منه الامتناع عن الاطعمة التى يحبها فلم تمر أيام حتى أخذت حدة الآلام تخف.. حتى شفى وعوفى الأمير تماما.

فقال الأمير مغتبطا:

- من اليوم، أنت ياأبا على بين أطبائى، بل أهمهم جميعا. والآن مادمت قد نجحت فى شفائى، فاطلب منى ما تتمنى ما شئت من المال.

فقال أبو على فى أدب:

– يا مولاى، إن مكافأتى هى أن تسمح لى بقراءة ما فى مكتبتك فقد سمعت بما فيها من وفرة فى الكتب فى كل علم وفن.

فنظر إليه الأمير فى تعجب، وقال فى نفسه:

«ياله من عاشق عجيب للقراءة، فلو كان قد طلب منى قصرا مثل قصر أبيه لما منعته عنه، وكل ما يطلبه هو مجرد القراءة فى مكتبتى».

فوافق الأمير بسرعة، وقام بنفسه وصحبه ليريه مكتبة قصره. كانت المكتبة من أكبر مكتبات الدنيا كلها تحتوى على صناديق عديدة للكتب.. كان بها ثلاثون ألف كتاب، ليس بينها كتاب مكرر النسخة وليس بها كتاب عادى، بل كان كل كتاب فى ذاته مرجعا فريدا من نوعه.

ومنذ هذا اليوم عرفته مكتبة الأمير أكثر قراء الدنيا شراهة.. كان يجلس فى المكتبة طوال يومه لا يفارق الكتاب، وكان إذا غادرها استعار معه بعض كتبها ليواصل القراءة ليلا فى منزله.. وكان إذا تعسر عليه فهم مسألة منها يخلو بنفسه للصلاة، ويبتهل لله حتى ييسر له فهم ما تعذر عليه فهمه، ويظل ساهراً يفكر حتى يغلبه النوم، والسراج بجانبه مضاء.

ومر عامان على ذلك قرأ فيهما أبو على معظم هذه الكتب، فأضحى بذلك ملما بكل ما كتب فى عصره من علوم، فكان الأمير بين حين وآخر يدعوه إلى مجلسه فيستمع إليه الناس فيتعجبون من غزارة علمه ومن فرط ذكائه.

وبدأت شهرة أبي على بن سينا تملأ الآفاق، وأخذ الناس يتحدثون عنه فى إعجاب شديد.. فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره يلم بكل علوم زمانه، فيصير عالما فى كل علم منها، بل ومن أعظم العلماء فى كافة العلوم.. حتى أضحى العلماء الآخرون الذين كان يشار لعلمهم بالبنان وكأنهم بلا اسم بجانبه، فبات الكثيرون منهم يكنون له الحسد ويتمنون أن يزيحوه عن طريقهم بكل السبل.

ولكن.. وفجأة.. اختفى أبو على لأيام طويلة، لم يشاهده أحد من العلماء فى مجلس الأمير، ولا فى مختبره.. فقد كان فى هذا الوقت هائما فى حب فتاة

تسمى «مسعدة» قابلها مصادفة فى الطريق فأعجبه منها جمالها وجيائها الشديد، فأخذ يتتبعها مرات عديدة ويرسل إليها رسائل عديدة..حتي جاءت اللحظة التى تمناها وتعذب من أجلها..فقد أرسلت إليه أخيرا إجابتها «الموافقة»، فكاد أن يطير من الفرح، فأسرع فى الطريق على قدميه وبدون فرس، غير عابئ بالناس الذين أخذوا ينظرون إليه وهو يجرى أمامهم فى دهشة، فقد كان علمه الغزير ومركزه الطبى الخطير وقوامه المديد يوحى إلى الجميع بالوقار.. فكيف يجرى هكذا كالأطفال، حتى وصل أخيراً إلى منزله ليخبر أمه، فما كادت أمه تسمع ذلك، حتى قالت وهى تعانقه وتذرف دموع الفرح:

– والله وكبرت ياحسين، لكم سعدت يابنى، وما زادنى فرحا وغبطة أننى أراك ولأول مرة تعيش حياة الشباب. تعيش شبابك يابنى، فلم أشاهدك طفلا كالأطفال، وكنت أخشى ألاّ أشاهدك مثل الشباب.

ثم توقفت قليلا، وقالت وقد تذكرت شيئًا:

– ولكن قل لى.. من هذه العروس وابنة من؟

فأجاب أبو على فى سعادة:

– إنها مسعده ابنة أبو بكر السعدى إسكافى القرية. أرجو أن تفاتحى والدى ياأمى، ياليتك تأخذين منه ميعادا ليذهب لخطوبتها.

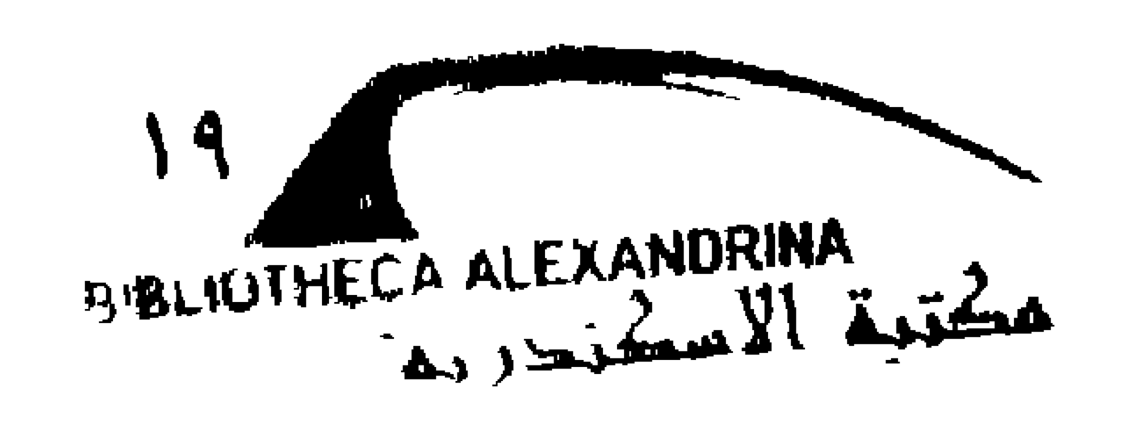
ولكن.. مر يوم.. واثنان.. حتى عشرة أيام، ولم تصل أبا على إجابة واحدة.. فشعر بقلق شديد، كان فى كل مرة يقابل والده فيجده منشغلا عنه أو مبديا الانشغال، فأسرع إلي أمه وسألها فى لهفة عما حدث.

فأطرقت الأم لمدة، ووضح على وجهها الحزن الشديد فقال غير مصدق:

– معنى ذلك أن والدى غير موافق ياأمى.

فأجابت الأم، وهى تغالب دموعها:

– النصيب يابنى، النصيب..



فأصاب أبا على الحسين غضب شديد، وأسرع إلى والده ليخبره لماذا رفض، ولكنه خشى أن يتفوه بلفظ يغضبه، فآثر الابتعاد، وأن يختار وقتا آخر يكون فيه أكثر هدوءا لعله يقنع والده، فأخذ يسير فى الطريق على غير هدى.. وبدون أن يدرى قادته قدماه رغما عنه إلى دار مسعدة، عساه يشاهد وجهها الجميل وهى ترعى أفراخها وأغنامها، فيفوز ببسمة تعيد إليه الصفاء وتمنيه بالهناء، ولكنه حين اقترب من الدار وجدها خاوية، حتى الماعز التى كانت قابعة أمامها لم يجد لها أثرا، فشعر بقوة شديدة، تدفعه للسؤال عنها، فليس أمامه سوى طرق الباب والسؤال عنها مهما كان الثمن، ولكنه ما كاد يقترب من باب الدار حتى استوقفه رجل وسأله فى غضب:

- ماذا تريد؟

فأجاب أبو على فى غضب:

- اريد مقابلة الشيخ أبى بكر السعدى.

ففوجئ بالرجل ينظر إليه نظرات فاحصة، ثم قال فى حزن:

- أبو بكر السعدى. لقد غادر هو وعائلته المنزل وتركوا البلد كلها.

فتساءل أبو على فى لهفة:

- وكيف.. كيف حدث ذلك!!

فأجاب الرجل:

- لقد جاءت مجموعة من الجند وأمروه بأن يترك المدينة كلها هو وعائلته، ومنحوه تعويضا ليعيش خارج البلدة.

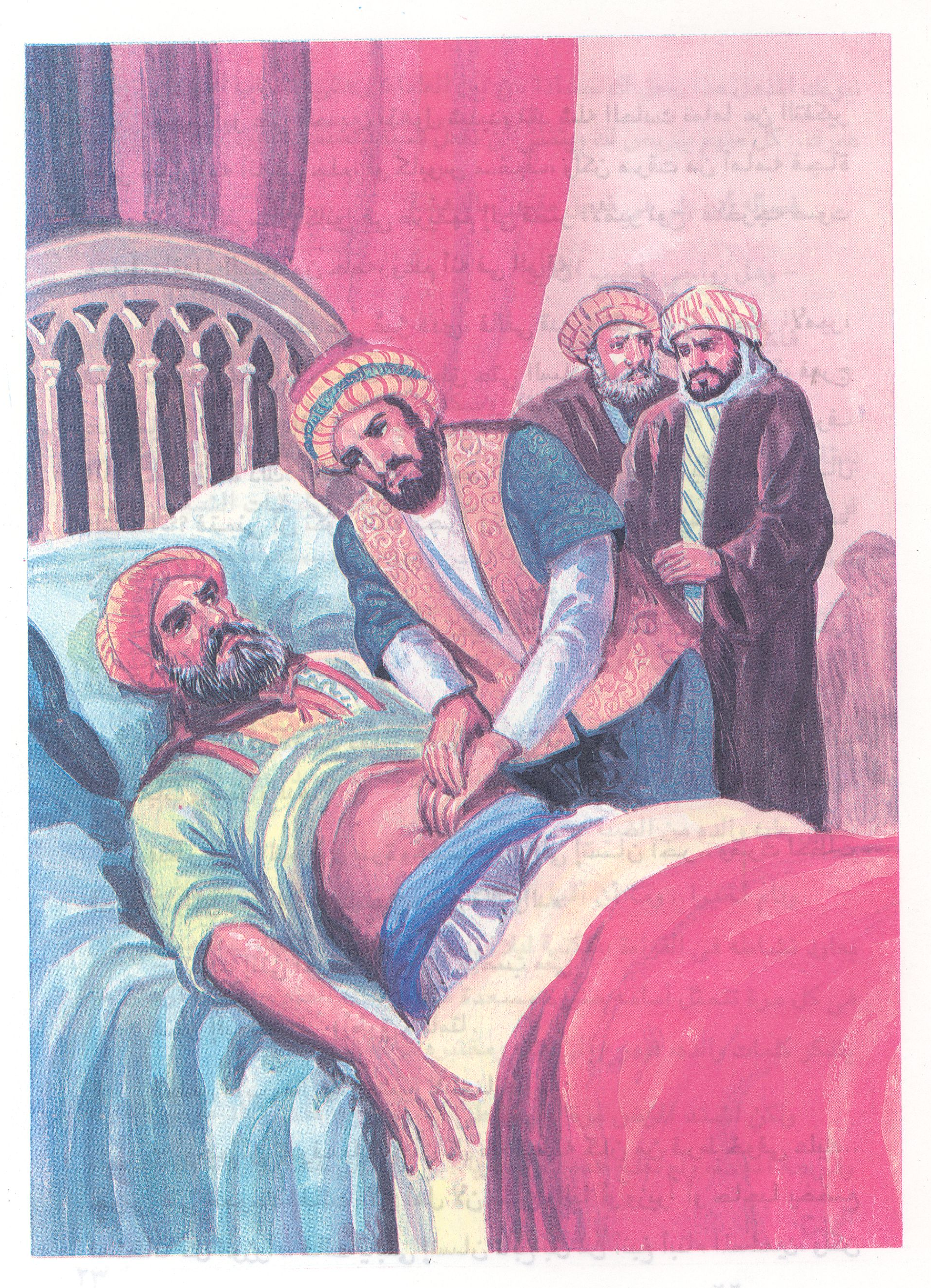
فسأله أبو على فى حنق:

- ومن.. من الذى أمرهم؟

فأجاب الرجل متراجعا:

- والى البلدة.. عبد الله بن سينا.

* * *



واشتغل ابن سينا بالطب وعالج الأمير نوح من آلام القولون وقرحة المعدة

أصيب أبو على الحسين بذهول شديد، فقد شله الحادث تماما عن التفكير حتى خيل إليه أنه فى حلم، أو كابوس مخيف، ولكن مرقت من أمامه فجأة مجموعة من الفرسان كانوا فى طريقهم إلى قصر الأمير نوح، فأخرجه صوت صهيل وأقدام الجياد من حلمه، وعلم أنه فى الواقع.

ومضى فى طريقه على غير هدى، فألفى قدميه تقودانه إلى قصر الأمير، فألفي نفسه أمام القصر، ولكنه لم يطق حتى السلام على حراس البوابة، فعرج على يمين القصر، ودلف إلى حيث يوجد قصر والده. كان كل همه أن يعرف لماذا فعل والده ذلك؟ والده الذى لم يحب أحدا مثله يفعل به هذه الفعال الشنعاء؟؟ فتمنى أن تكون هذه مجرد وشاية من أحد لعله يشفى غليله، أما والده فكيف؟

ودخل داره أخيرا، وبالرغم من تعبه الشديد من فرط الأزمة فقد أبى النوم أن يزور عينيه.

ولكن.. ما أن مضت دقائق معدودة حتى فوجئ بطرق على باب غرفته، ثم فتح الباب ويدخل والده.

فنظر إلى والده لأول مرة وكأنما ينظر إلى إنسان آخر.. ومرت لحظات قصيرة، ولكن خيل إليه أنها دهر، حتى قال والده:

– إننى.. إننى أعرف يابنى أنك غاضب منى.

فنظر إليه أبو على وأطرق صامتا.

فجلس الأب وقال وهو يشير لابنه بالجلوس:

– أرجو أن تعرف يابنى بأن كل ما فعلته كان من فرط خوفى عليك.. خوفى على طموحك، فأنت الآن أهل لأن تكون واليا أو وزيراً أو حاجبا يخضع لسلطانه كل الوزراء، فأنت يابنى إنسان نابغ بل من أنبغ أبناء المسلمين، ولكن

نبوغك المذهل هذا جعل لك حسادا من بين العلماء، وحتى الشباب الذين فى مثل عمرك.. كل منهم يتربص لك ويتمنى أن تفعل شيئا يغضب الأمير.

فسأله أبو على فى ضيق مقرون بالدهشة:

– وهل زواجى يغضب الأمير؟

فأجابه والده:

– نعم ياولدى زواجك من ابنة الإسكافى سيغضبه، لأنك رجل من رجاله بمثابة وزير أو حاجب، فكيف تقول البلدة كلها أن طبيب الأمير وذراعه الأيمن فى الشئون العامة متزوج من ابنة إسكافى من أقل طبقات الشعب.. إنها ستكون فرصة يابنى ليقلبوا عليك الأمير ويهدموا مستقبلك، فكان على أن أمنعك، وأن أمنح الإسكافى مالاً يعيش به بعيدا عن هنا، فلا فرق لديه بين مكان وآخر، فليست له أملاك أو أموال يخشى عليها هنا.

وما كاد والده ينصرف حتى فاضت الدموع من عينيه بغزارة، لقد كان فى حيرة بين الهناء الذى كان ينشده من زواجه بمسعدة وبين طموحه الذى خشى عليه والده من الضياع.

ونام أخيرا.. وما أن أقبل اليوم التالى حتى كان فى قصر الأمير نوح يعاود نشاطه فى القراءة بالمكتبة ليلا ونهارا وفى إجراء التجارب بقصره.. كان فى كل مرة تتمثل أمامه صورة مسعدة فيكاد يقتله الحنين، ولكنه سرعان ما يتذكر كلمات والده، فيهرع إلى كتبه ومختبره مرة أخرى.

ولكن اشتد المرض مرة أخرى على الأمير نوح، فقد ازداد مرض الغليظ وقرحة المعدة، ولم تفلح هذه المرة أدوية أبى على فى علاجه وشفائه، فأسلم الروح.

وما كادت تنقضى عدة أشهر على وفاة الأمير حتى أصيب أبو على بضربة أقوى.. ضربة اهتز لها كل كيانه، فقد صحا من نومه على أصوات فى قصر أبيه تعلن وفاته.. فلم يصدق نفسه..

كادت المفاجأة تصيبه بالشلل التام، وخنقه الحزن.... واستمر الحزن لأشهر طويلة لا يفارقه أبدا.. كان الناس يأتون ليزوروه فيجلس بالساعات الطوال صامتا.. فقد كان حزنه على فراق والده أكبر من كل شئ، فأضحى القصر الذى عاش فيه سعيدا والذى شهد فيه أمجاده وكأنه قصر مهجور أو سجن لا يطاق... إلى أن استيقظ يوما على طرق شديد على الباب فما أن فتح الباب حتى وجد مجموعه من شرطة الأمير تدخل فجأة، وإذا برئيسهم يقول له بلهجة غاضبة:

- هيا.. هيا أيها الطبيب إن معى أمرا بتسليمك فورا إلى قاضى بخارى.

فتساءل أبو على فى ذهول:

- لماذا؟

فأجاب الرجل وهو يدفعه دفعا نحو الباب...:

- ألا تعرف ماذا حدث؟ أنت متهم بإحراق مكتبة قصر الأمير نوح.

* * *

سار أبو على مع الحراس فى ذهول تام، فلقد كان حزنه على المكتبة عظيما.. المكتبة التي عاش بين جدرانها وكتبها أحلى سنوات عمره، ومما زاده حزنا أنه هو المتهم بإحراقها فكيف ذلك؟

وما سبب التهمة؟

ولكنه ما أن وقف أمام القاضى حتى علم منه لماذا اتهم هو بإحراقها، فلقد استغل بعض حساده من العلماء فرصة احتراق المكتبة ووشوا به أمام القاضى، وقالوا إنه هو الذى أحرقها، حتى لا يعرف أحد سواه بما كان فى كتبها من العلوم والمعارف.

وبالرغم من أن القاضى قد استمع إلى شهادة أصدقائه الذين كانوا معه فى قصر والده ليلة حريق المكتبة، وأنه لم يغادر قصره ليلتها، وبالرغم من إخلاء القاضى لسبيله بعد ما تأكد من ذلك، إلا أن الشائعات لم تخمد، فقد كان همُّ حساده أن يبتعد عن طريقهم بأى ثمن.

وكانت الدولة فى ذلك الوقت قد أخذت فى الضعف بعد موت الأمير نوح بسبب ضعف الأمراء الآخرين، فطمع بذلك أمراء دولة غزنة التى كانت منافسة للدولة السامانية التى يعيش فيها على بن سينا، وكان أقوى أمراء غزنة هو الأمير محمود بن سبكتكين الذى أخذ يرسل أفرادا من جيشه مهددا المدينة حتى أوشك على الاستيلاء عليها. وكان السلطان محمود هذا مشهورا بشدة بأسه وتعصبه ضد الفلاسفة وكراهيته الشديدة لهم، فلم يجد ابن سينا أمامه بدا من الفرار، حيث لم يعد له مكان فى بخارى، المدينة التى فقد فيها أميره نوح وودع بها أباه، واتهم ظلما بإحراق المكتبة التى كانت أعز شئ لديه فى الدنيا، فاستقر رأيه على الذهاب إلى مدينة الجرجانية التى كانت عاصمة الدولة الخوارزمية فى الشمال، فعرض الأمر على والدته، فاختارت العودة إلى أهلها

فى قرية أفشنة التى كان زوجها الراحل عبد الله واليا عليها فيما مضى من السنين، أما أخوه الحارث فقد قرر البقاء فى بخارى بعض الوقت، فلم يجد مفرا من الذهاب وحيدا .. إلى مدينة الجرجانية.

وجاء يوم الوداع وودع أصدقاءه من الأمراء والوزراء الذين تشتتوا فى كل مكان، وودع والدته وأخاه.. وذهب فى هذا اليوم مبكرا إلى قبر أبيه فقرأ الفاتحة وبكاه بدموع غزار، فلقد شعر بأنه بوداعه لوالده يودع كل شئ، فقد كان والده القلب الكبير الذى كان يحتضنه دائما.

ولم تنقض عدة أيام حتى كان واقفا أمام الأمير على بن مأمون أمير خوارزم في قصره بالجرجانية، فرحب به الأمير واستقبله استقبالا رائعا قائلا له:

– لقد سبقتك شهرتك يا ابن سينا، فمنذ وفاة أميركم نوح رحمه الله وأنا أفكر فى دعوتك لتقيم بيننا.

فأسعدت كلماته هذه ابن سينا، فقد كان الأمير على يحب العلم والعلماء، وكان قد أنشأ مجمعا علميا فى الجرجانية يضم صفوة من أعظم العلماء فى ذلك الزمان. مثل البيرونى صاحب البحوث القيمة والنادرة فى علم الرياضة، وأبو سهل المسيحى الفيلسوف والطبيب أبو الخير الخمار، وغيرهم من عظماء المشاهير.

وقرر الأمير على راتبا شهريا لابن سينا، وضمه إلى مجلس العلماء فى مجمعه العلمي، فشعر ابن سينا بأن الأيام بدأت تصفو له مرة أخرى، فها هو يختار بين أعظم العلماء.. يعيش معهم.. يتداول معهم البحوث والمعرفة فى كل شيء، ويواصل قراءاته وبحوثه ومعالجاته للمرضى بين حين وآخر.

وكان بين الحين والآخر يتنقل فى خوارزم.. يجوب مدنها كلها باحثا عن الكتب، ثم يعود إلى مدينة الجرجانية مرة أخرى فى رعاية الأمير على.. ومرت عشر سنوات قضاها ابن سينا فى هدوء وسكون، كان الأمير محمود بن سبكتكين قد حقق أثناء هذه السنين انتصارات حاسمة حتى أعلن نفسه سلطانا على غزنة، وكان اسمه قد أصبح يثير الرعب فى كل مكان، فكل الإمارات قد أصبحت تخشى بأسه، ويعرفون مطامحه فى الاستيلاء على كل الإمارات الأخرى ليضمها إلى ملكه، فتسابق جميع الأمراء إلى نيل حظوته واتقاء بأسه.. ومن بين هؤلاء كان الأمير على بن مأمون نفسه، الذى من فرط خوفه وخشيته منه اضطر إلى زواجه من أخته وإعلانه التبعية لسلطانه.

فشعر ابن سينا أنه قد أصبح بذلك فى مأمن من السلطان مادام أميره قد عرف كيف يتقى شره، فألف فى هذا الوقت عدة كتب «الحكمة العروضية» و«المختصر والأوسط» و«المبدأ والميعاد» و«الحاصل والمحصول» و«البر والإثم»، وكانت كتبه هذه فى الفقه وفى الفلسفة ثم ألف كتابا آخر باسم «أرصاد الكلية» فى علم الفلك، جمع فى هذا الكتاب كل معارفه الفلكية.

ولكنه ما كاد يشرع فى تأليف كتاب فى الطب حتى وقع ما كان يخشاه منذ سنين طويلة، فقد جاءت رسالة من السلطان محمود بن سبكتكين إلى الأمير على يأمره فيها بضم جميع العلماء الذين يضمهم مجمع الجرجانية العلمى إليه.. وأولهم ابن سينا نفسه.

* * *

جمع الأمير أبو على المأمون علماء مجمع الجرجانية وصارحهم فى حزن بأطماع السلطان محمود فى بلاده وعجزه عن مخالفة أمر السلطان.

فلم يجد جميع العلماء بدًّا من قبول أوامر السلطان، ولكن رفض ابن سينا وزميله أبو سهل المسيحى، فلم يعترض الأمير أبو على بل هيأ لهما سبيل الفرار، وأمدهما بدليل حاذق يقودهما فى شعاب الصحراء الموصلة إلى مدينة جرجان.

فلما علم السلطان الغزنوى بفرار ابن سينا استشاط غضبا، فقد كان لا يهمه من هؤلاء العلماء سوى ابن سينا نفسه طامعا فى استغلال معرفته الطبية، فقرر أن يقبض عليه بكل السبل، فلجأ إلى العالم أبو الخير الخمار زميل ابن سينا، الذى كان بارعا فى الرسم وطلب إليه أن يرسم صورة من الذاكرة لابن سينا.. وبعد أن قام الخمار برسمها، أمر السلطان رسامى البلدة برسم أربعين نسخة منها ووزعها فى جميع أنحاء الدولة الفارسية طالبا القبض على الفيلسوف الهارب فى أى مكان يوجد فيه، ومن يظفر بالقبض عليه يحصل على مكافآت كبيرة من السلطان.

وكان أول ما فكر فيه ابن سينا هو اللجوء إلى الأمير «قابوس وشكمير» أمير الدولة الزيارية التي تقع جنوبى بحر قزوين، فقد كان أميرا قويا لا يخضع للسلطان محمود، ولا يستطيع السلطان محمود أن يقبض على أحد هناك، وكان ابن سينا قد تعرف بالأمير قابوس فى إحدى زياراته للأمير على بن مأمون، فقرر الذهاب إلى هناك فى صحبة صديقه العالم الفيلسوف أبو سهل المسيحى.

وفى ظلام الليل غادر الصديقان مدينة الجرجانية، وكانا فى ثياب الدراويش، حتى لا يتعرف عليهما أحد من جواسيس السلطان محمود وتابعيه.

وكان الطريق شاقًا، فقد كانت الصحراء واسعة وخطيرة فما كادا يبلغان أوسطها حتى هبت عاصفة رملية شديدة هلك فيها صديقه أبو سهل المسيحى،



وبدأ ابن سينا يضع خبرته الطويلة فى الكتب يؤلفها فى علوم شتى.

فحزن عليه ابن سينا حزنا شديدا، وأكمل الطريق مع مرشد، ولكنه ما كاد يصل إلى مدينة تسمى «ياورد» حتى رفض الدليل أن يواصل معه الرحلة وانسحب عائدا إلى بلاده..

فوجد ابن سينا نفسه يمضى من بلد إلى بلد بلا دليل.. حتى وصل أخيرا إلى المدينة جرجان عاصمة الدولة الزيارية.

وكانت المدينة جميلة تقع على ساحل بحر قزوين موفورة الثراء، تجرى فيها نهيرات عديدة، فشعر ابن سينا براحة غريبة إلى هذه المدينة، وراح يتجول فيها، وإذا به يقابل فجأة صديقا له... هو الفيلسوف أبو حمد الشيرازى، فنزل عنده ضيفا، ولكنه بالرغم من مشقة السفر الطويل، إلا أنه لم ينم فى هذا اليوم، فقد كان يتحدث فى شتى الأمور مع صديقه الفيلسوف.. ومما ساعده على ذلك السهر قلقه المتزايد الذى كان يجاهد نفسه أن يخفيه مرارا عن صديقه. فربما.. ربما يخذله الأمير قابوس ويرفض إقامته حتى لا يجلب على نفسه المشاكل مع السلطان محمود بن سبكتكين، ولكنه ما كاد يذهب إلى الأمير قابوس فى اليوم التالى فى صحبة صديقه أبى حمد الشيرازى، إذا بالأمير يحسن استقباله، فضمه إلى مجلس علمائه، وخصص له راتبا شهريا، أكثر مما كان له عند الأمير المأمون، فاشترى لنفسه دارا واسعة.

وبدأ ابن سينا يتعرف بأهل مدينة جرجان، وخاصة العلماء منهم، فنمت صداقة بينه وبينهم جميعا، وكان أكثرهم صداقة عالم فقيه هو «أبو عبيدة الجرجاني»، فاستراح كل منهما لصاحبه فصارا صديقين حميمين، واعتاد أبو علي أن يملي على صديقه «أبي عبيدة» ما يريد تدوينه من مؤلفات، حتى يفرغ عقله للتفكير فيما يمليه، وكان أبو عبيدة يزداد إعجابا بصديقه يوما بعد يوما، فقد كان يملي عليه مما يختزنه عقله من علم من دون الرجوع إلى المراجع.

وبدأ ابن سينا يملى على أبى عبيدة أخطر كتابين عرفتهما دنيا العلم.. أحدهما كتاب القانون الطبى.. الذى لم ير أحد فى زمانه مثيلا له، فقد كان الكتاب منظما تنظيما غريبا، فقد قسمت فيه الأمراض لأول مرة فى تاريخ الطب إلى أمراض رأسية وصدرية وباطنية وعصبية ونسائية وتناسلية، وشرح فيه كل قسم شرحا دقيقا... ويتحدث فيه عن كل مرض مبينا نشأته وأسبابه وأعراضه وطرق علاجه..

ولم يقف الكتاب على وصف الأمراض وطرق علاجها فقط، بل اشتمل على أسماء العقاقير والأدوية ومواطن الجراحات، وكذلك أدوات الجراحة.. وتم كل ذلك بنظام عجيب، جعل كل من يدرس الطب يحتاج إليه كمرجع أول للطب فى الدنيا.. فجمع بذلك علم الطب بعد ما كان مشتتا.

ومما زاد أبا عبيدة ذهولا، أن الكتاب الثانى وهو كتاب الشفاء كان يحوى عدة مجالات أخرى، فقد كان الكتاب موسوعة كبيرة فى العلوم والفلسفة، وهو مقسم إلى أربعة أقسام.. المنطق والطبيعة والرياضيات وما بعد الطبيعة أى العلم الإلهى.

ولم يكن ذهول أبى عبيدة من شمول الكتاب على مجالات عديدة فقط، إنما ذهوله من أنه يشرح فى الكتاب كل موضوع كأعظم علماء عصره فى ذلك العلم، كما كان الكتاب يحتوى على أفكار غريبة لأول مرة يسمعها العلماء أنفسهم فى زمانه، فهو أول من جاء فى الدنيا بأسلوب جديد فى الدراسة، وهو أسلوب التجربة والبحث، بعد ما كان العلماء يعتمدون على الصدفة أو الحكمة.. أما ابن سينا فى كتابه فقد جعل كل شئ يقوم على البحث التجريبى.. وفى الكتاب يحارب ما كان سائدا بين الناس من مفاهيم.. فيحارب التنجيم أو ربط أقدار البشر فى حياتهم اليومية بحركات الأجرام السماوية فى أبراجها، وعارض لأول مرة ما كان يحلم به علماء الكيمياء ويتخيلونه.. فقد كانوا يتخيلون ويحلمون بتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب.

ومما زاد الكتاب جرأة ودهشة أن ابن سينا ينتقد فيه فلاسفة اليونان فى الكثير من الآراء، وكانت هذه أول مرة يثبت فيها إنسان أن الفلاسفة يخطئون ويصيبون كسائر البشر، فقد كان الناس يعتقدون أنهم لا يطلقون إلا الحكمة وكأنهم ينطقون من خلال وحى.

وبالرغم من أن ابن سينا كان يفاجئ أبا عبيدة دائما بأفكار جديدة فى الكتاب.. إلا أنه لم يكن متفرغا تماما للكتابة، بل كان بين حين وآخر يذهب لعلاج الحالات الطبية الصعبة التى لا يستطيع أحد فى المدينة علاجها، حتى راح أهل المدينة وعلماؤها جميعا يتحدثون عن عبقريته.. وكان أكثرهم إعجابا بهذه العبقرية الأمير قابوس نفسه، الذى أخذ يستشيره فى شئون الحكم وكافة أمور الدولة ويعمل بنصائحه ومشورته.. حتى صاح القواد جميعا:

– ما هذا؟ ماذا يحدث فى القصر؟ إن ابن سينا هو الذى يدبر ويخطط لكل شئوننا حتى أضحى الأمير لا يسألنا فى أمر من الأمور!!

حتى جاء يوم.. ما أن أوى ابن سينا إلى فراشه بعد مغادرة مجلس الأمير ليلا كعادته، وإذا به يسمع أصواتا غريبة.. أصوات عراك شديد، ثم غبار لا ينقطع كانت تحدثه حوافر الخيول ويتعالى صهيلها فهبط أدراج داره ليستطلع الأمر، ولكنه ما كاد يهبط بضع درجات حتى وجد أبا عبيدة أمامه يستوقفه وقد بدا عليه ذهول شديد.

فسأله ابن سينا فى دهشة:

– ماذا.. ماذا حدث يا أبا عبيدة؟

فأجابه أبو عبيدة فى فزع وهو يجذبه من ملابسه بقوة ليصعدا إلى الدار مرة أخرى:

– لقد.. لقد قتل القواد الأمير قابوس، وهم فى طريقهم إليك لقتلك.

* * *

فسأل ابن سينا أبا عبيدة في دهشة:

– لماذا..؟ ماذا حدث؟

فأجابه أبو عبيدة وهو شارد يفكر في وسيلة للهروب:

– لقد كره القواد علاقتك بالأمير وضاقوا بهذه الصلة، فدبروا انقلابا عسكريا ضد الأمير، فلما قاومهم قتلوه، وهم في طريقهم للقبض عليك فجر الغد أثناء نومك، لقد سمعتهم يتحدثون ويتفقون على ذلك دون أن يشعروا بوجودي.

فما أن سمع ابن سينا ذلك حتى أسرع إلى مكتبته فأخذ منها كل كتبه وأوراقه، وشرع في الهروب من جرجان يصحبه صديقه وتلميذه الحبيب أبو عبيدة.. كان كلاهما بثياب المتصوفين، وقد أسرعا في الليل رغم مشقة الطريق حتى وصلا إلى مدينة همذان.. وهناك نزلا في خان مستخفين، ولم ينم ابن سينا كعادته بالرغم من مشقة الطريق سوى ساعات قليلة، ثم أمضى السهرة مع صديقه أبي عبيدة وصاحب الخان.

وبينما كان الصديقان يتحدثان مع صاحب الخان في شتى المواضيع حدثهما الرجل عن مرض غريب لم يعرف له جميع الأطباء الموجودين بهمذان علاجا.. فقد كان المريض ملازما للصمت عازفا عن الطعام والكلام حتى عن الشكوى مما يؤلمه.

فأخذ أبو عبيدة يفكر سريعا، فقد كان يعلم قدرة ابن سينا على شفاء الأمراض، ثم قال لصاحب الخان:

– إن صاحبي هذا يستطيع علاج قريب الأمير شمس الدولة أمير همذان لو دبرت لنا سبيل الوصول إليه.

فنظر الرجل إليهما في دهشة، فقد كانا لا يزالان بملابس الدراويش المتصوفين ولا يبدو على ابن سينا هيئة الطبيب في ملابسه هذه، ولكنه حين

رآهما وقد ارتديا ملابسهما المعتادة، أسرع بتيسير وسيلة لهما للوصول إلى المريض حيث يوجد فى قصر الأمير شمس الدولة.

فلما وصلا إلى القصر، ونظر ابن سينا إلى الأمير، فإذا به يراه ساهما شارد النظرات، لا يلتفت إلى أحد، شاحب الوجه غائر الخدين.

فجلس ابن سينا وأخذ يفحص مريضه.. راح يفحصه فى بادئ الأمر من الناحية الجسمانية، فلم يجد به مرضا، فقال لمن حوله:

– إن المريض لا يعانى من مرض بجسده، إنما يبدو أنه يعانى مرضا نفسيا.

فنظر جميع الحاضرين إليه فى دهشة، وقالوا غير مصدقين:

– ماذا يعنى ذلك، هل تعنى أن به جنونا.. لا تنس أنه من أقارب الأمير شمس الدولة.

فعلق أحدهم ساخرا:

– وكيف عرفت أنه مجنون، وهو لم يأت ولو بحركة واحدة، فما سر جنونه؟

فلم يجبهم ابن سينا، بل قال لهم آمرا:

– ائتونى برجل يعرف كل بلاد الإمارة البويهية التى تعيشون فيها ومدنها وقراها.

فنظر الناس إليه فى استغراب، ولكنهم لم يجدوا بدًّا من قبول طلبه، فجاءوا له برجل تاجر دائم السفر، فأجلسه ابن سينا بجانبه وأمسك هو بأصابع يسراه المعصم اليسرى للمريض واضعا إبهامه على عرق النبض وقال للتاجر:

– اذكر لى أسماء بلاد الإمارة كلها..

فأخذ التاجر يذكر أسماء البلاد، حتى إذا ذكر اسم بلدة بعينها، أحس ابن سينا بنبض مريضه الشاب يشتد خفقه، عندئذ صرف ابن سينا التاجر، وطلب من أهل المريض أن يأتوه برجل آخر يكون من أهل هذه البلدة التى خفق لذكرها قلب المريض، فجاء برجل دلال، وأخذ يذكر له أسماء الأحياء فى هذه البلدة، وأسماء الشوارع بها، وعندما نطق الدلال باسم شارع بعينه خفق قلب الشاب خفقا عنيفا، فطلب ابن سينا من الدلال أن يذكر أسماء العائلات التى تقطن فى هذا الشارع، وأسماء بناتها، وحين ذكر الدلال اسم أسرة بعينها، تسارعت دقات قلب الشاب وارتجفت جفونه، ودفع الشاب بابن سينا وقد انفجر فى بكاء مرير وهو يخفى وجهه بكفيه.

فابتسم ابن سينا وقال بصوت مرتفع:

- مريضنا يحب هذه الفتاة التى سمعتم اسمها، وفى رؤيته لوجه هذه الفتاة شفاؤه، فزوجوه منها فيشفى إلى الأبد.

وكان ابن سينا بذلك أول طبيب فى الدنيا يعالج مرضاه بأسلوب علمى جديد من اختراعه سمى بعد ذلك فى علم النفس بمدرسة التحليل النفسى.

فلما علم الأمير بشفاء قريبه، أدركته فرحة غامرة، وذهب إليه لمعرفة هذا الطبيب النابغة، فلما قدم ابن سينا نفسه صاح الأخير فى دهشة:

- ابن سينا أهو أنت؟ لقد سمعت عنك كثيرا ولكن لماذا أخفيت نفسك عني ياابن سينا، فلو سمعت بقدومك لاستقبلتك بنفسى على أبواب المدينة.

وأمر الأمير شمس الدولة بتجهيز قصر ليكون خاصا بابن سينا ليعيش فيه ويمارس أبحاثه.

ولكن ما أن استقر ابن سينا فى قصره حتى أصاب الأمير شمس الدولة مرض القولنج (انسداد الأمعاء) فاستدعى ابن سينا لعلاجه، وبقى بقصر الأمير أربعين يوما يداويه حتى شفى، فتوطدت الصلة بينه وبين الأمير، فأخذ الأمير

يصحبه فى الحروب التى كانت دائمة النشوب بين الإمارة والإمارات الأخرى المجاورة.. حتى جاء يوم عرض فيه الأمير عليه أن يكون رئيسا لوزرائه ومستشارا لشئون الحكم، فشعر ابن سينا بأن آماله قد بدأت تتحقق، فهو لا يشتهى الحكم، ولكنه يشتهى من ورائه أن يكون أكثر قدرة على تحقيق العدالة والحرية بين الناس، فأخذ ينظم ساعات يومه كلها.. فهو يستيقظ قبل الفجر ليكتب عدة صفحات من كتاب الشفاء الذى يضم حصيلة أفكاره فى الفلسفة والمنطق والعلوم.

وعند الفجر يستقبل تلاميذه ليلقى عليهم دروسه، وما أن تنتشر تباشير الصباح حتى يصلى بهم إماما. ثم يخرج من بيته إلى ديوان الوزارة فيلقاه بالباب ألف من الفرسان، ويركب الوزير ابن سينا فرسه، ويمضى وحاشيته من حوله حتى يصل إلى مقر عمله، فيمكث حتى الظهر، ثم يعود يتناول الغداء، ثم يذهب ليؤدى صلاة العصر، قبل أن يذهب إلى الأمير فيمضى معه فترة ما بعد العصر إلى المغرب فى المنادمة وتجاذب أطراف الحديث، وبعد أن يصليا معا صلاة المغرب ينصرف ابن سينا إلى داره، فيجتمع بتلميذه أبى عبيدة ليملى عليه من الذاكرة بعضا من كتابه القانون والشفاء، ثم فجأة يتحول ابن سينا إلى حياة أخرى، فيحضرُ المغنون على اختلاف طبقاتهم، ويهيأُ مجلس الشراب وموائد الطعام فينصرف ابن سينا إلى الاستمتاع بهذا كله، حتى يأوى إلى فراشه، فلاينام سوى ثلاث ساعات.

وفى هذه الفترة أضاف ابن سينا إلى كتاب الشفاء الكثير فأفرد قسما كبيرا باسم جوامع الموسيقي أجاب فيه عن السؤال الذى كان يحيره دائما.. لماذا تختلف الأصوات، وما تعليل حدوث الأنغام الغليظة المنخفضة والأنغام الرفيعة العالية.

فأجاب ابن سينا فى الكتاب عن تعليل حدوث الأنغام الغليظة المنخفضة والرفيعة العالية بأن ذلك يرجع إلى قوة شد الوتر.. وقد بين فى الكتاب أن



الموسيقى هى علم مثل سائر العلوم الرياضية كالحساب والهندسة والفلك.. فهى علم يبحث عن أحوال النغم من حيث التنافر والائتلاف، فهى تتنافر وتتآلف على أساس النسب والأعداد، فقدم نظرية جديدة فى الموسيقى سميت بتآلف الألحان.. ولم يلبث بعد عدة أشهر أخرى حتى جاء بطريقة جديدة فى الموسيقى لم يعرف بها أحد من عشاق الموسيقى من قبل فى هذه الدنيا.. فقد حول ابن سينا الجمل الموسيقية إلى رموز فبدلا من أن يسمع الفرد اللحن.. فإنه بمجرد أن يقرأ هذه الرموز يكون كأنه استمع إلى اللحن تماما، فسمى هذا الاختراع بعد ذلك باسم النوتة الموسيقية.

ولم يقف الأمر على ذلك.. بل فاجأ صحبه من العلماء إذ قدم لهم عودا، لم يروا مثله من قبل، ذا مفاتيح عند العنق، ترفع الأوتار قليلا عنها، وقال لهم:

– هذه مفاتيح تتيح للعازفين التحكم فى درجة شد الأوتار، فالوتر الرخو أضعف نغما، والوتر المشدود أحلى في الأنغام، وترديد الأصداء.

ورغم هذه المشاكل والاختراعات العديدة، فقد كان القواد يحتارون دائما فى أمره، فقد كان يتفقد أحوال الدولة وكأنه متفرغ لأحوالها فقط، فيدير أمورها بحزم شديد.. حتى بلغ به الحزم يوما أن أصدر قرارا بوقف قوات الجيش عن تولى أمور الخراج وجباية أموال الفقراء بأكثر مما يطيقون، حتى لا يفتتن القائد بالمال، فيفقد روح القتال. فمهمتهم فقط استتباب الأمن والاستقرار.

فشعر رجال الجيش أنهم بذلك سيعيشون على رواتبهم فقط، ولايستطيعون الوصول إلى الثراء الذى يتطلعون إليه من عملهم، فثاروا على هذا القرار، فهاجموا قصر ابن سينا وقبضوا عليه، وضربوه ضربا مبرحا وسجنوه فى إحدى القلاع، ثم توجهوا إلى مقر الأمير شمس الدولة قائلين فى تهديد:

– إما أن تستمر فى حكمك أو تصدر حكما بإعدام ابن سينا.

***

ما أن سمع الأمير شمس الدولة بقرار قواده، حتى صاح فيهم في غضب غير عابئ بتكاتفهم حوله واستعدادهم لقتله لو رفض:

-إنني أرفض أن أصدر حكما بذلك، فابن سينا عالم لم يظهر له نظير ولن يقول التاريخ عني أنني قتلته.

فلما وجد القوات الأمير مصمما على موقفه، قالوا له مهددين:

- ولكن يجب أن يغير ابن سينا قراره وأن يترك الوزارة ويظل سجينا.

فقبل الأمير طلباتهم خشية على صديقه ابن سينا، وعلى منصبه هو من تهديد القوات، ولكنه اشترط عليهم أن يسمحوا له بأن يأخذ ابن سينا كتبه وأوراقه، وأن يزوره صديقه أبو عبيدة في كل نهار ليملي عليه ابن سينا ما يريد أن يمليه عليه من المؤلفات، فوافقوا.

واستمر ابن سينا شهورا طويلة، كان يقرأ فيها كثيرا، وأخذ يملي على صديقه أبي عبيدة كتاب الهوايات، ودوّن ملخصا عن مرض القولنج (انسداد الأمعاء) ذكر فيه أسباب هذا المرض وأعراضه وطرق الوقاية منه والعلاج.. حتى ألمّ بالأمير شمس الدولة مرض قرحة المعدة والتهاب القولنج مرة أخرى، واحتار الأطباء في علاجه فاضطر قواده إلى قبول خروج ابن سينا من سجنه لعلاج أميرهم. فأخذ يمرّض الأمير ويسكن آلامه حتى شفي من مرضه تماما فكان أول ما قام به الأمير استرضاء قادة جيشه، فنجح في ذلك، ووافقوا أخيرا على إعادة ابن سينا لرئاسة الوزراء، حتى يتفرغ الأمير لغزو أقليم كارم بجيشه.

فعاد ابن سينا إلى الوزارة مرة أخرى، وإلى إلقاء دروسه وإملاء كتبه وإلى سهرات الليل.. ولكن ما أن ذهب الأمير بجيوشه لغزو إقليم كارم، إذا به يعود إلى الإسراف في طعامه وشرابه فاشتد عليه المرض.. حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في الطريق.

فتولى العرش ابنه الأمير تاج الدولة، ولكنه كان صغيرا ليس له خبرة بمهام الحكم، فانتهز قادة الجيش الفرصة وزعموا أن ابن سينا يقوم بانتقاده له أثناء دروسه، فغضب الأمير غضبا شديدا، وعزل ابن سينا وقطع كل رواتبه، فاضطر ابن سينا إلى الهروب من همذان يتبعه صديقه الحميم أبو عبيدة متنكرين في ملابس الصوفية في ظلام الليل، عاقدين العزم على الذهاب إلى مدينة أصفهان التي كانت مدينة عامرة تقع بين شيراز وطهران، وهناك اشترى ابن سينا لنفسه قصرا يقيم به، واشترط على أميرها علاء الدولة أن يتفرغ فقط للتأليف وأن لا يقحمه في شئون السياسة، فقبل الأمير ما يريد مشترطا عليه أن يجالسه مساء كل يوم خميس، وأن يقوم بعمل مرصد للكواكب يصلح من خلاله فوضى التقاويم، فانشغل ابن سينا بالمرصد الفلكي للكواكب والنجوم، وابتكر للرصد آلات جديدة، وأملى على صديقه أبي عبيدة كتابه الضخم في علم الفلك «الإنصاف في الأرصاد» وأتم في هذه الفترة كتابا جديدا «النجاة» وقد جعله ملخصا لكتابه «الشفاء».

وأخذ ابن سينا يضيف إلى الدنيا اكتشافات طبية لم ير لها الناس مثيلا من قبل، فاكتشف مرض الإنكلستوما، وأطوار الدودة التي تسببها، كما أشار إلى انتقال الأمراض بالماء والتراب، وابتكر ما يشبه كيس الثلج واستخدمه في حالة الحميات، فأنقذ بذلك الملايين من المرضى بارتفاع الحرارة.. حتى وقتنا هذا.. وكان قد توصل إلى أخطر شيء من الأوساط الطبية في الدنيا كلها؛ فقد توصل إلى استخدام التخدير لإجراء العمليات الجراحية مستخدما بعض النباتات كالزوان والشيلم، فأضحى المريض لا يعاني من أي ألم أثناء إجراء الجراحة، ومما زاد أطباء الدنيا دهشة أنه لأول مرة في التاريخ يقوم طبيب بحقن المريض تحت الجلد، وكان هذا الطبيب ابن سينا، إلى جانب الأدوية الطبية التي أعطاها هو على الدنيا، وأول من استعملها، فازدادت شهرة ابن سينا وملأت الآفاق، فقال الأطباء في إعجاب وذهول:

- ياله من طبيب عالم، لقد فاق جالينوس وأبوقراط، إنه كالساحر تماما.

وكان بين الحين والآخر، يستنجد به أحد الناس عندما يكون لديهم مريض عجز الأطباء عن إيجاد وسيلة لشفائه، فأثار ذلك الحسد والحقد عليه من بعض الأطباء، وتمنوا أن تفشل له ولو عملية واحدة.. فلو فشلت فسيطلقون كل الشائعات التي تثبت أنه طبيب عادي، فينصرف عنه الناس وأولهم الأمير.. حتى سنحت لهم الفرصة أخيرا.. فقد جاءه الأمير علاء الدولة يوما، وقال له مهموما:

- لي قريب يا ابن سينا أصابه الجنون، ولكنه جنون من نوع عجيب، فهو يظن أنه بقرة، ويخور مثل البقرة، ويطالب بذبحه، وحين لم يستجب أحد لطلبه من أن يذبحه، امتنع عن الأكل، ولقد عرضناه على كل أطباء الدولة وحتى الدول الأخرى، ففشلوا في علاجه، وها نحن أولاء ننتظر موته ليريح نفسه من هذا الخوار وليريحنا جميعا معه.

فلما علم حسّاد ابن سينا من الأطباء بأن الأمير عرض أمر هذا المريض على ابن سينا، قالوا في غبطة وشماتة:

- ها.. هاهي اللحظة قد حانت، فهذه حالة متأخرة من حالات الجنون، لن يستطيع ابن سينا علاجها، فبعد فشله نطلق نحن الشائعات.. لينتهي اسم ابن سينا إلى الأبد، ويصبح في نظر الناس طبيبا عاديا.

* * *

أخذ ابن سينا يفكر طويلا في وسيلة لعلاج هذا المريض، واستغرقه التفكير حتى ترك فى هذا اليوم كل شئ أمامه، ولكنه ما أن أشرقت شمس اليوم التالى حتى خطرت له فكرة قام على الفور بتنفيذها، فبعث رسولا للأمير المريض ليبلغه قائلا:

– إفرحى الآن أيتها البقرة، فالجزار سوف يأتى قريبا ليذبحك.

فما أن تأكد من إبلاغ الرسالة، حتى ذهب إلى الأمير المريض فى اليوم التالى مرتديا زى الجزار، ومعه بعض أتباعه، ووقف فى ردهة قصر الأمير يشحذ سكينين كبيرتين، ثم صاح بصوت عال:

– أين البقرة التى تريدون منى ذبحها؟

فلما سمعه المريض فرح، وأخذ يقلد صوت البقرة، واندفع بسرعة نحو ردهة القصر حيث يوجد الجزار.

فأشار ابن سينا إلى أتباعه، فقيدوا المريض، وطرحوه أرضا كما تطرح البقرة استعدادا لذبحها.

وأخذ ابن سينا يجس جسم الأمير بطرف السكين، ثم قال لأهله:

– إن هذه البقرة نحيفة هزيلة الجسم، لا تصلح غذاء لأحد، فأطعموها حتى تسمن وتمتلئ باللحم، عندئذ نحضر لذبحها.

فصاح فيهم الأمير الشاب في لهفة:

– هيا .. أطعمونى.. اسقونى، ستأكلون جميعا من لحمى أطباقا شهية.

وبدأ الأمير يقبل على تناول الطعام فى شهية.. فأخذت صحته تتحسن شيئا فشيئا حتى برئ من مرضه، وزال عن نفسه وهم أنه بقرة، فازداد إعجاب الأمير علاء والناس بقدرة ابن سينا المعجزة حتى حساده من الأطباء أنفسهم

يأتون ينظرون إليه كمعجزة لا مثيل لها، فأراحوا بذلك أنفسهم، بل وصرفوا كل همهم ليزدادوا معرفة من ابتكاراته الطبية، وكان بين حين وآخر يبهرهم بكشف طبى جديد، فلم يلبث أن أظهر كيفية العدوى بأخطر الأمراض.. مرض السل.. وكيفية علاجه، وأظهر لهم ذلك بالتجربة، فقد شفى أمامهم امرأة مسلولة مستخدما فى العلاج معجونا من الورد والعسل طالبها ألا تتناول غيرهما، وأشار إلى وجود أورام بالمخ، وتعلموا منه التشخيص السليم المحكم فى أعراض وسير الأورام السرطانية، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يوضح فيها طبيب سير هذا المرض الخطير. ثم كان أول من اكتشف عضلات العين، وبين أن فى الكثير من الأحيان يكون وراء الاضطرابات المعوية أسبابا نفسية.

واستمر ابن سينا يضيف إلى دنيانا ابتكارات جديدة فى شتى المجالات يوما وراء الآخر.. حتى جاء يوم، فبينما كان يلازم فيه الأمير علاء الدولة فى إحدى غزواته الحربية أحس فجأة بالتهاب فى الأمعاء الغليظة وهو المرض الذى طالما عالج غيره به، فأخذ يعالج نفسه منه بحقن استخلصها من النباتات.

ولكنه متى عاود ملازمته لعلاء الدولة مرة أخرى قبل أن يشفى من مرضه، حتى عاوده المرض ثانية واشتد عليه، فشعر ابن سينا بآلام جعلته لا يستطيع أن يعالج نفسه بنفسه، فلجأ إلى طبيب آخر ليساعده، وشرح له كيف يركب الدواء، فقام الطبيب بتنفيذ أوامره، ولكن ما كاد ابن سينا يتعاطى الدواء حتى اشتد عليه المرض بصورة لم يسبق لها مثيل.

فسأل الطبيب فى دهشة وهو يتأوه من فرط الألم:

– كيف قمت بتركيب الدواء؟

فما كاد الطبيب يشرح له كيف قام بذلك حتى زفر ابن سينا وقال للطبيب فى عتاب وألم هائل:

– لقد.. لقد أخطأت أيها الطبيب.. وكان الثمن حياتى.

* * *

وأخذت صحة ابن سينا فى التدهور يوما وراء الآخر، حتى صار يقذف الدم من فمه، وعجز عن السير على قدميه، فأدرك أن نهايته قد أوشكت، فاستعد للقاء ربه واغتسل وتفرغ للصلاة وقراءة القرآن والاستغفار، وتصدق بكل ماله على الفقراء.. حتى جاء يوم جمعة... كانت الجمعة الأولى من شهر رمضان سنة أربعمائة وثمان هجرية، وبعد ما فرغ الناس من صلاة المغرب بلغهم نعى ابن سينا، فأسرع الجميع إلى تشييع جثمانه يتقدمهم الأمير علاء الدولة وجيشه الكبير، وقاموا بدفن جسمانه فى سفح جبل همذان.

وبعد موته بسنوات طويلة، أخذ العلماء من جميع أنحاء الدنيا يحصون مؤلفاته وابتكاراته، فلم يصدقوا جميعا أنفسهم، فقد وجدوا أن ابن سينا عالم فى العديد من المجالات، وأن مبتكراته فى كل علم تفوق ابتكارات العلماء أنفسهم المتخصصين فى نفس العلم.. فقد ألف ابن سينا فى الطب والفلسفة والمنطق وعلم النفس والأخلاق والرياضيات والكونيات والكيمياء والنبات وعلوم اللغة والموسيقى.

وكانت اكتشافاته العلمية وراء العديد من التقدم فى مجالات حياتنا فهو الذى أثبت أن الشعاع الذى يصدر من الجسم هو سبب رؤيته، فكان ذلك وراء التقدم فى علوم التصوير والضوء، وغيرها.. وهو الذى علل السبب فى أن صوت الرعد أبطأ من نور البرق، ولذا نسمع الرعد بعد أن نرى البرق. وأن سرعة الضوء أسرع من سرعة الصوت.

وهو الذى بين لنا أن الصوت يصدر من تموجات الهواء التى تصل إلى أذن الإنسان.

واستمر كتابه القانون هو عماد الدراسة فى كليات الطب فى أوربا لمدة ستمائة عام كاملة، فلا يصير الطبيب طبيبا إلا بعد أن يدرس كتاب القانون.

وبمرور السنين يزداد ذهول العلماء من قدرة ابن سينا التى سبق بها العلماء بألف عام.. وكان أغرب ما رأوه أن القانون الأول للحركة فى علم الديناميكا والذى ينص على أن الجسم يبقى فى حالة سكون، أو فى حالة حركة منتظمة فى خط مستقيم، ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير حالته، وهو القانون الذى كان وراء صعود الإنسان إلى القمر ووصول مراكبه الفضائية إلى سائر الكواكب السيارة.. وجدوه فى كتاب ابن سينا «الشفاء».

* * *

رقم الإيداع	٧٨٠١ / ١٩٩١
الترقيم الدولى	٩٧٧ - ١٠ - ٩٨٧٦ - ٤



صدر من هذه السلسلة

* أينشتين ونظريته العجيبة.
* داروين ورحلة العجائب.
* باستير قاهر الميكروب.
* ماري كوري والعنصر الغامض.
* أديسون ساحر العصر.
* حجة الأسلام الغزالى
* الشيخ الرئيس ابن سينا أسطورة العلم